النهضة العربية الأولى
محاولة نقد وتقويم

محمود إسماعيل(*)

يجمع الدارسون على أن العالم العربى شهد "نهضة" بدأت إرهاصاتها أواخر القرن الثامن عشر، وتعاظمت خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

على أن مفهوم "النهضة" يشوبه الكثير من الالتباس؛ خصوصا إذا ما جرى قياسه على النهضة الأوروبية التى كانت واقعا تاريخيا جديدا أخذ فى التطور والنماء خلال عصر الأنوار الذى أفرز الثورة الفرنسية وما تبعها من ثورات تقدمية- ثورات ١٨٣٠، ١٨٤٨- انتقلت بأوروبا إلى الرأسمالية، وقطعت بالكلية مع العصور الوسطى المظلمة.

إن هذا التطور التاريخى المتعين لم يحدث- وإلى الآن- فى العالم العربى؛ ومن ثم نرى أن ما اصطلح عليه الدارسون بصدد "النهضة العربية الأولى" ينم بداهة عن عدم حسم تاريخى قاطع على مستوى البنية الاجتماعية، وبالتالى على المستويين السياسى والفكرى.

لذلك؛ نرى أن تلك النهضة المجازية لم تتجاوز إحداث درجة من الوعى- على مستوى النخبة ليس إلا- تحت تأثير معطيات داخلية تمثلت فى خلخلة البنية الإقطاعية- لا القضاء عليها- بما سمح بدور محدود وعابر للبرجوازيات الوطنية فى العالم العربى الحديث.

ولعل هذا الالتباس كان من أسباب اختلاف الآراء وتضارب الرؤى فى تقويم وتثمين "النهضة العربية الأولى". فبرغم إجماع الدارسين العرب- من أمثال أحمد أمين وعبد المتعال الصعيدى ومن بعدهما عبد الله العروى وأنور عبد الملك وكمال عبد اللطيف وغيرهم- كذا الدارسين الغربيين- من أمثال شارلز آدامز وألبرتو حورانى وهاملتون جب وغيرهم- برغم إجماعهم على أن القرن التاسع عشر شهد هزة كبرى-

---

(*). أستاذ التاريخ المعاصر، كلية الآداب، جامعة عين شمس. مصر

إيجابية على العموم- إلا أنهم اختلفوا بصدد تعليلها واستكناه دوافعها.

إذ ذهب البعض إلى أن ما حدث راجع إلى الصدمة الناجمة عن الالتقاء- المسلح- بين الشرق بحضارته الآفلة والغرب بقوته الحضارية الفتية والكاسحة ممثلا فى الحملة الفرنسية على مصر والشام؛ تلك التى أظهرت عجز "الموروث" الشرقى فى مواجهة "الوافد" الغربى؛ الأمر الذى أفضى إلى اليقظة التى أسفرت عن "النهضة".

ونحن نشاحح فى هذا التفسير؛ تأسيسا على أن الوجود الفرنسى فى مصر كان قصير العمر، فضلا عن عدم فعاليته فى إنهاء الإقطاعية السائدة بفكرها النصى الغيبى التهويمى.

من هنا تسقط دعاوى البعض- كمال عبد اللطيف- فى تصوير هذا الالتقاء غير المتكافئ؛ والأهم فى تقدير وتثمين فعالياته وتأثيراته. يقول الباحث: "شهد القرن التاسع عشر تحولات كبرى؛ فهو القرن الذى انتقلت فيه الرأسمالية إلى عتبة الإمبريالية؛ تلك التى كان لها تأثيرها الكبير والمباشر فى بنية التاريخ العربى... ولها فى الوقت نفسه نتائجها فى بلورة بدايات وآفاق الوعى الجديد فى الفكر العربى المعاصر".

وبغض النظر عن خطأ الزعم بتحول الرأسمالية الأوروبية إلى الإمبريالية- التى لم تحدث تاريخيا إلا بعد انتهاء عصر الاستعمار الاستيطانى- فقد بالغ الدارس فى تأثير العامل الخارجى حين أناطه بمهمة تخليق الوعى والفكر العربى الحديث. ذلك أن إرهاصات وبدايات هذا التخليق كانت سابقة على هذا التاريخ، ومرتبطة بدور البرجوازية التجارية- خصوصا فى الشام- الأمر الذى يجعلنا نعطى الأولوية للظرف الموضوعى الذى شكله الواقع الداخلى ومعطياته فى العالم العربى.

وإن اقتضى الإنصاف الاعتراف بدور محدود للغزو الأوروبى فى خلخلة البنية الإقطاعية السائدة. من هنا أيضا نشاحح أصحاب الاتجاه المعاكس الذى يعول فى تفسيره على العوامل الداخلية السوسيو- اقتصادية. فالبرجوازية العربية الوليدة كانت من الهزال والضعف بحيث تعزز أبنيتها العلوية خصوصا على مستوى الفكر والثقافة.

لذلك؛ لا نجد مبررا للفصل بين العاملين الخارجى والداخلى اللذين تضافرا على تخليق "الظرف الموضوعى" الذى أفرز النهضة.

وإذ تقتصر مهمة هذه الدراسة على تقويم تلك النهضة؛ فإن الضرورة المنهجية

تقتضى الرجوع إلى الماضى وإلى "الآخر" اللذين أسهما معا فى تخليق النهضة وتحديد آفاقها؛ لا لشيء إلا لأنها كانت "محاصرة" بمعطيات كل منهما.

ودون استباق للنتائج والمصادرة على المطلوب؛ نرى أن حجم وكثافة ودرجة وفعالية النهضة كانت رهينة تلك المعطيات؛ بحيث كان عطاؤها متسقا معها؛ فى التحليل الأخير.

كانت المجتمعات العربية تعيش حالة من "السكون" والجمود؛ فالفكر السائد كان إفرازا لسيادة نمط الإنتاج الإقطاعى والعسكرى منه على وجه الخصوص، وذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجرى الذى شهد حسم الصراع المائع بين البرجوازية والإقطاع، لصالح الإقطاع بطبيعة الحال تحت تأثير نظم عسكرية- أيوبية ومملوكية وعثمانية- أفرزت فكر ما أسماه ابن خلدون بعصر الانحطاط؛ حيث ساد الإتباع والتقليد والأثر على الإبداع والعقل والنظر.

صحيح أن بعض محاولات برجوازية- تجارية بالأساس- برزت- هنا أو هناك- طارحة فكرها العقلانى التجريبى الشاحب؛ لكنها أجهضت نتيجة هزال الطبقة الوسطى من ناحية وتسلط النظم العسكرية من أخرى.

كما أن محاولات أخرى سلفية قدر لها أن تتبنى بعض صيغ التجديد- كمحاولة ابن تيمية على سبيل المثال- لكن تلك الصيغة لم تسفر إلا عن "توليد" حركات إصلاحية "إحيائية" كرست الفكر السائد وضببت مفهوم "الإصلاح" فى حد ذاته.

لذلك؛ كان الفكر السائد قبيل النهضة إستمرارا لإفراز الإقطاعية العسكرية السائدة بالمثل؛ وهو فكر يكرس "الأمر الواقع" ويناهض التجديد بكل صيغه وأشكاله.

وبصدد "الآخر"؛ كانت حملة "بونابرت" المتوجة بالفكر الليبرالى الوافد بمثابة إعلان لتحدى "الموروث". -لكنها فى التحليل الأخير- لم تسع إلى التبشير بفكر عصر الأنوار؛ بقدر ما كانت تعبيرا عن التنكر لميراث الليبرالية بعد تحول البرجوازية الأوروبية عن مبادئ "الثورة الفرنسية"؛ بادئة ومدشنة لحركة الاستعمار الاستيطانى.

صحيح أن الحملة الفرنسية تمكنت من تقليم أظافر الإقطاع الشرقى دون أن تجهز علية، كما أسهمت فى إيقاظ الوعى الوطنى نتيجة انتصار الوافد على الموروث، لكنها مع ذلك لم تحدث تأثيرا جذريا فى أعماق المجتمعات والشعوب العربية.

وبفضل تجربة "محمد على" وحكم "البايات" فى تونس وما صاحبها من محاولة القضاء على الإقطاع وإتاحة الفرصة للتحديث على مستوى بناء الدولة وتأسيس النظم- على وجه الخصوص- أسهم فى تخليق مناخ جديد أتاح للفكر البرجوازى الوليد أن ينعتق- ولو بقدر- من إسار الموروث؛ أو على الأقل نبه أذهان "النخبة" نحو مراجعته.

لكن ابتلاء العالم العربى بالاستعمار الاستيطانى برغم ليبراليته لم يسهم فى فتح باب الليبرالية على مصراعيه للنخبة المفكرة؛ بل حاول طمس "الموروث" ذاته؛ الأمر الذى شكل "تحديا" جديدا أمام النخبة أسفرت "الاستجابة" له عن ترسيخ الموروث بعد تجديده بدرجة أو بأخرى.

على أن الوجود الاستعمارى أسفر- بشكل بغير مباشر- نتيجة تحديث النظم لخدمة سياساته ومصالحه عن ظهور اتجاه ليبرالى وطنى يعول على القطيعة مع الموروث بالكلية ويعانق الحداثة-فى إطار المتاح والممكن- فى صيغة انبهارية محاكية ومقلده. وقد عبر عنه على مستوى النخبة ثلة من المفكرين المسيحيين- من أمثال أديب إسحق وسلامة موسى- وجدوا فى "العلمانية" طريقا يوصل إلى النهضة.

ولا يبالغ- كمال عبد اللطيف- حين أخذ على أصحاب هذا الاتجاه "المهادون" محاولة غرس الليبرالية فى بيئة غير مواتية. من هنا كان إلحاحهم على قضايا هامشية فى برامجهم الإصلاحية؛ كالدعوة إلى الحريات الفردية؛ وتأسيس الأحزاب واستزراع الديموقراطية فى صيغ علمانية... الخ.

وجدير بالذكر أن فكر هذا الاتجاه جاء متسقا مع طبيعة البنية الاجتماعية التى تصدرت طبقة " كبار الملاك" هرمها الطبقى. ومن هنا كان إلحاح أصحابه على أسلوب "المفاوضات" لتحقيق الجلاء؛ فضلا عن وضع دستور ذى سمة ليبرالية. ولقطيعته مع التراث العربى الإسلامى لم تلق دعواته آذانا صاغية على مستوى النخبة؛ وبديهى ألا تتغلغل فى كيانات الشعوب.

وإذ يرى بعض الدارسين إخفاق المشروع الحداثى الليبرالى فى الشرق العربى- حسن حنفى- فإن البعض الآخر- محمد عابد الجابرى- يرى أنه نجح نجاحا كبيرا فى بعض أقطار المغرب العربى؛ لا لشئ إلا لتميز النخبة المفكرة المغربية نتيجة موروثها العقلانى الممثل فى فلسفة ابن رشد وفقه الشاطبى وفكر ابن خلدون.

وعندنا أن الاتجاه الليبرالى فى العالم العربى -عموما- كان مؤطرا بليبرالية الغرب، ويدور فى فلك الاستعمار الأوروبى بدرجة أو بأخرى؛ لذلك كانت إنجازاته جد محدودة.

على أن الليبرالية العربية "المراهقة" والمبهورة أفرخت- ضمن ما أفرخت- روح الوطنية على المستوى الإقليمى؛ كما أفرزت تيارا يعانق الفكر القومى العروبى. ولا غرو فقد كان جل منظرويه من النصارى. ولعل ذلك يدل على محاولة أصحاب هذا التيار الحفاظ على كينونة العناصر غير المسلمة التى خشيت على وجودها من دعوات الحركات السلفية وجل حركات التجديد التى عانقت فكرة "الجامعة الإسلامية".

كما أفرزت الليبرالية تيارا آخر يعانق الفكر الاشتراكى؛ كرد فعل ضد التيارين الوطنى والقومى معا الذين أفلسا- عمليا- نتيجة خطابهما المسرف فى "الشوفينية" والرومانسية. كذا تجنب خطاب كلا منهما للبعد الأجتماعى؛ هذا فضلا عن ظهور بواكير حركات عمالية نتيجة إنجازات البرجوازية فى مجال التصنيع. وأخيرا؛ لتعاظم سياسات النهب الاستعمارى المنظم وتفاقم المشكلات الاقتصادية؛ ومن ثم الاجتماعية.

على أن كون معظم زعامات التيار الاشتراكى- المعتدل والماركسى فى آن- من اليهود- هنرى كوريل- والمسيحيين- شلبى شميل وفرح أنطون- قد فت فى قوة وتنامى هذا التيار. ناهيك عن "مراهقته" من حيث الانشغال باللجاج النظرى والإيديولوجى؛ وما أفضى إليه من فرقة وتشرزم. هذا فضلا عن غلبة الثقافة العربية الإسلامية؛ سواء على مستوى النخبة، أو على صعيد الشعوب.

من هنا؛ أفرزت تلك الثقافة الموروثة أهم مشروعات النهضة سواء فى جناحها السلفى، أو التجديدى. وقد جمعهما- لذلك- قاسم مشترك أعظم؛ وهو الانطلاق من التراث بعد تجديده وإحيائه لمواجهة التحدى الليبرالى الغربى وتابعه العربى.

ومع ذلك، إختلف السلفيون والمجددون حول ما يجب إحياؤه من الموروث، كذا حول الغاية من الإحياء. فالاتجاه السلفى إنطلق من فكر ابن تيمية الذى جرى اعتباره مجددا فى زمانه. والاتجاه التجديدى عول على إحياء الموروث العقلانى والعلمى التجريبى. أما عن هدف السلفية فتمحور حول تأسيس دولة إسلامية كبرى؛ أنموذجها عصر الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين. أما المجددون؛ فقد الحوا على القضية الوطنية كأساس وهدف لمشروعاتهم الإصلاحية.

كما أختلف الاتجاهان بصدد الموقف من علوم الغرب؛ إذ حارهبا السلفيون بالكلية؛ بينما لم يجد المجددون غضاضة فى النهل منها؛ مع الحفاظ على أخلاقيات المـوروث بعد تطهيرها وتطويرها.

ويرجع هذا الاختلاف- فيما نرى- إلى كون الحركـات والـدعوات الإصـلاحية السلفية ولدت وتخلقت فى مجتمعات بدوية أو متخلفة؛ كما هو حال الحركـة الوهابيـة والسنوسية والمهدية.

فالحركة الوهابية تلقفت فكر ابن تيمية المؤسس على فقه الأمام ابن حنبل المحافظ. لذلك تمحور هدفها الإصلاحى على شكليات وطقوس بدعوى محاربة البدع والضلالات التى أشاعها التصوف الطرقى والتهويمى. كما عولت على العنـف طريقـا ومنهجـا لإنجاز الإصلاح المنشود. أما عن موقفها السياسى؛ فقد تمثل فى مهادنة الدولة العثمانية من جهة، والاستعانة بالسلطة- آل سعود- مـن أخـرى دون النظـر إلـى طبيعتهـا الاستبدادية.

ولعل ذلك يفسر انتشار الدعوة بين العوام برغم خوائها معرفيا.

وعلى النقيض كانت الحركة السنوسية من حيث انطلاقها من التصوف الطرقـى. كما فتحت باب الاجتهاد فى الفقه على عكس الحركة الوهابية وعولت علـى التربيـة والتعليم إلى جانب "جهاد" المستعمر فى أقطاب المغرب العربى.

أما الدعوة المهدية فقد انطلقت أيضا من الطريقة التى حولت الإسلام إلى "فلكلور".

وشاركت الوهابيين والسنوسيين فى الطموح إلى إحياء "دار الإسلام" كذا فى جهاد الاستعمار. وجمع الحركات الثلاث غلبة السياسة على الفكر؛ الآمر الذى أثمر فى مجال جذب العوام.

ويمثل "رشيد رضا" نقلة فى فكر الإصلاح السلفى، على الرغم من تردده وتخليطه فى صياغة مشروعه إيديولوجيا. وبرغم كونه من تلامذة الإمام محمد عبـده؛ وبـرغم ثقافته الواسعة لم يدخر وسعا فى الأخذ عن مرجعيات مختلفة ومتناقضة. إذ جمع بـين فكر الأشاعرة والغزالى وابن حزم فى آن. ولعله استهدف من ذلك كسب المزيـد مـن الأعوان والأتباع لتجنيديهم فى سلك "الجامعة الإسلامية" التى تبناهـا الـسلطان عبـد الحميد. ولعل هذا أيضا يفسر حملاته الضارية ضد النزعـات الليبراليـة والعلمانيـة

والوطنية والقومية والاشتراكية. لذلك غلبت السياسة على الفكر والديماجوجيـة علـى التعقل؛ فكان خطابه رومانسيا يوتوبيا مقعقعا لفظته النخبة وشاع بين العوام.

خلاصة القول؛ أن الاتجاه السلفى رغم هشاشته معرفيا؛ كان أكثر رواجا وانتشارا؛ وهو أمر يتسق مع المعطيات السوسيو- ثقافية فى العالم العربى الحديث. أما الاتجـاه التجديدى؛ فقد مثله ثله من المجددين من أمثال الشيخ حسن العطار ورفاعه الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده. وإذا كان الأفغانى يشذ عن سابقيه ولاحقيه فى تبنيه مـشروعا ثوريا راديكاليا يشمل العالم الإسلامى بأسره ويعمل على الإطاحة بـالنظم والـسياسات القائمة، فضلاً عن التصدى لمواجهة الاستعمار الغربى؛ فقد نهج سائر المجددين نهجـاً مغايرا. إذ عولوا على الإصلاح التدريجي المرحلى من خلال مهادنة النظم القائمة، بل والعمل على ترشيدها لتبنى مشروعاتهم الإصلاحية. لذلك لـم يتقاعـسوا عـن تـولى المناصب العليا والعمل على تحقيق إنجازات عملية تتمثل فى إصلاح مؤسسات الدولة؛ تأسيسا على حقيقة فشل الأسلوب الثورى "اليوتوبى" فى إحداث تغييـر شـامل دفعـة واحدة. كما توجهت جهودهم لإصلاح الدولة الوطنية أساساً؛ بدلاً من الطموح لتحقيـق الوحدة الإسلامية الشاملة.

على أن كافة المجددين اتفقوا على ضرورة تجديد الفكر الدينى وتنقيته مـن أدران الخرافات والشعوذات وذلك بعقلنته. لذلك عولوا على إحياء التيار العقلانى الموسـوعى والعلمى التجريبى في التراث الإسلامى فمثلا فى الاعتزال والفلسفة المشائية الرشـدية خصوصا. كما نهجوا نهج جماعة إخوان الصفا فى التنـوير وتوظيـف الحكمـة فـى "تطهير الشريعة من الجهالات". تأسيسا على حقيقة استحالة تحقيق الإصلاح دون تنوير الشعوب. من هنا بنيت إستراتيجيتهم الإصلاحية على ترشيد الحكام وتنوير الرعية فـى آن. كما أجمعوا على الإفادة من علوم الغرب إقتداء بالسلف المستنير الذى أنجز ترجمة تراث الأوائل دونما تعصب أو جمود؛ وإن تحفظوا فى مجال الأخلاق وأنماط الحيـاة؛ معولين على الإسلام نفسه فى هذا الصدد. لقد اشتركوا جميعاً فى رفض التقليد سـواء من الموروث أو الوافد .

لذلك فتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه خصوصاً فى مجـال الفقـه والـشريعة؛ تأسيسا على كونه مبدءا إسلاميا. فالإسلام- فى مخيالهم- حمل نظرة تقدميـة شـاملة للكون والحياة. لذلك لم يتقاعسوا عن استلهام مبدأ الشورى الإسلامى لإصـلاح الـنظم

الحاكمة القائمة. كما تبنوا مبدأ التكافل الاجتماعى ومبدأ العدالة فى صيغتها الإسلامية.

وإذ أسفر بعضهم عن مناهضة الاستبداد- كالكواكبى- فقد آثر معظمهم مهادنة النظم القائمة من باب "التقية" وإذ أعلن البعض عن أفكار اشتراكية- كالطهطاوى- فقد رأى غالبيتهم أن تلك الدعوة السابقة لأوانها؛ ومن ثم ناشدوا الأغنياء لمساعدة الفقراء.

والحق أن استراتيجيتهم العملية فى الإصلاح آتت أكلها وإن بدرجة محدودة؛ خصوصا فى مجال الإصلاح الدستورى وتطوير التعليم الدينى وإدخال التعليم المدنى.

ومع ذلك تعرض المجددون لعنت الاستعمار والنظم الحاكمة والمؤسسات الدينية، فضلا عن التيارات الليبرالية. ويرجع ذلك- فيما نرى- إلى أن تطويرا فى مجال الواقع الإقتصاى لم يتم. فلم تحدث ثورة برجوازية تقدم مناخا مواتيا للإصلاح.

صحيح أن تغييرات محدودة مست الواقع الاقتصادى- ومن ثم الطبقى- لكنها كانت قاصرة وعاجزة عن استئصال شأفة النظام الاقتصادى القائم وأفضى عدم الحسم على تخليط وتداخل بين أنماط إنتاج متنافرة- لكن متاعيشة- إلى تخليط وتداخل مماثل على المستوى الفكرى. فلم تتشكل اتجاهات محددة وصريحة ذات توجهات واضحة، ولم تحدث قطيعة تامة مع الماضى تمهد لفكر جديد. ولعل هذا يفسر اختلاف الدارسين فى تقويم- بل مجرد رصد- الاتجاهات المتواجدة على الساحة، فخلطوا بين السلفيين والمجددين نظرا لانطلاقهما معا من قاعدة ماضوية ومرجعية إسلامية.

لقد عبر فكر النهضة- بامتياز- عن تواجد شاحب لبرجوازية هزيلة وغير فاعلة. لذلك ظلت مشروعات الإصلاح حبيسة عقول النخبة المفكرة؛ دون مردود شعبى يذكر. كما أن الإنجازات كانت جد محدودة؛ فلم تمس كيان الواقع القائم. كما كان الجدل السفسطى وآلية الدفاع يشكل القاسم المشترك فى خطاب سائر الاتجاهات وكافة التيارات. واتسم الخطاب النهضوى بالتوفيق والمحاكاة دون إبداع يذكر.

ومع ذلك؛ لا سبيل لإنكار حقيقة حركية وتفاعل الفكر بعد عصور طويلة من السكون والجمود. ونجم عن ذلك نوع من الوعى العام على مستوى السياسة والفكر فى آن. لكن هذا الوعى لم يتجاوز- وما كان له أن يتجاوز- مرحلة "المراهقة". لقد جرت تعرية أنماط الفكر السائد والموروث عن عصر الانحطاط بفضل الحوار الساخن الذى تمخض عن اختلاف الآراء وتباين الرؤى.

على أن هذا الإنجاز لا يعمينا عن حقيقة غلبة الماضى وقوة فعاليته حتى بالنسبة للتيارات التى تبنت التجديد. من هنا تصدق مقولة عبد الله العروى فى أن "كل الاتجاهات كانت تستعير مفاهيمها من مدارس مختلفة أوروبية وعربية وإسلامية بدون الاهتمام بالتماسك الفكرى والتناسق المنطقى. وحتى تلك التى استعارت مفاهيم ليبرابية غربية كانت تزكيها بأخرى فقهية سنية أو كلامية اعتزالية أو فلسفية إشراقية".

بل أن الكثيرين من مفكرى التجديد كانوا منتمين إلى طرق صوفية؛ بما ينم عن تخليط وتوفيق؛ بله تلفيق. وعندنا أن تلك السلبيات كانت وليدة واقع سوسيو- سياسى لم تحسم فيه مسألة الصراع بين أنماط الإنتاج؛ ومن ثم لم تقع ثورة برجوازية تقطع مع الماضى وتعكس فكرها الجديد بطابعه الهيومانى والفردانى والعقلانى؛ كما هو الحال بالنسبة للنهضة الأوروبية.

إن عدم حدوث تلك الثورة- إلى الآن- تعد مسئولة عن وأد النهضة العربية الأولى؛ ومن ثم لا يزال الواقع العربى الفكرى المعاصر يجتر ويكرر قضايا وأطروحات ومقولات ومفاهيم وآليات روادها.